منهجي في هذا الباب

عهد إليّ الأستاذ « الزيات » أن أتولى تحرير هذا الباب [١] من « الرسالة » ، فأجبت إرادته بالتسليم ، وأنا أجد المعانى فى نفسى حائرة لاتكاد تقر ، فقد لحقتنى إرادته والحياة من حولى تفتِّرنى حتى ما أحس من فورتها إلا القليل ، والنفس منبوذة على حدود النشاط فى كسلٍ مجدب بالقحط والظمأ لا يهتدى إليه رِيٌّ ولا شِبَع . وإذا كانت النفس كذلك لم يأت خيرها إلا من طول الإحساس بالحرمان والألم ، فهى تريد أن تتكلم من نوازعها بألفاظ ثائرة ضائعة حائرة كأنما تبحث عن نفسها فى معانيها ... ثم لا تتكلم ، وهى على ذلك لا تطيق التأمل فى المادة التى تعرض لها إلا بمقدار من الرغبة فى البحث عن نفسها فى سر نفس غيرها لتجد عند ذلك أسبابًا تهتاج بها وتضطرب وإذا لم تجد النفس لذتها المؤلمة إلا فى انتزاع الآلام المحرقة مما ترى وتسمع وتتخيل ، فكيف تعيش أفكارها إلا فى دخانٍ من الأحزان الصامتة صمتَ الفكرة المختنقة التى لا تجد أنفاسها ولا جوّ أنفاسها . هكذا أَجِدُنى .

وهذه النفس المنبوذة بما جنت وبالذى لم تجن من شىء ، هى النفس التى أريد أن أتولى بها النظر فيما يعرض لى من شؤون الأدب فى أسبوع من أسابيع « مصر » ، ولقد تشاكلا ووقع حافرٌ على حافر فى حَلْبة مغلقة . فنفسى الآن هى نفسى التى لا أكاد أجمعها وألم أشتاتها إلا قليلًا ، وما هو إلا أن أراها مبعثرة تَفِرّ منى أوابدها فى كل وجه ، وأقف أنا أتلفَّت ... أنظرها وهى تغيب فى ظلام الأحزان ، وتترك عندى أطيافًا من الذكرى تطوف فى تأملاتى مرسلة من مزاميرها ونايها أنغامًا حزينة مهجورة متفجِّعة كأنما تقول : هذا مكان كان أهله ثم بادوا ، وهكذا أيضًا أَجِدُنى .

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٣٩) ، ١٩٤٠ ، ص : ٢٤ - ٢٦

(١) هذا الباب هو « الأدب فى أسبوع » .

فى بعض الإنجيل هذه الكلمة : « من وجد نفسه أضاعها ، ومن أضاع نفسه من أجلى وجدها » ، أفيكون معنى ذلك أن النفس الإنسانية لا توجد باقية أبدًا إلا وهى مستهلكة ، وأن الأشياء الشريفة التى تُهلك هى بعينها التى تُحيى ، وأنه لا معنى للشىء الحىّ إلا أن يجتمع فيه معنى الأشياء الشريفة ، الموت والحياة معًا ، وأن استغراق النفس واستهلاكها فى الأحزان النبيلة وتعذيبَها بها هو استحياؤها وتنعيمها ، وأن العمل المهلك والفكر المهلك هما العمل الإنسانىّ الجليل الذى خُلِقَتْ من أجله الحياة على الأرض ! وعلى ذلك لا تكون النفْس حيَّة أبدًا إلا وهى سائرة بالحياة فى مَسْبَعَةٍ [1] من الموت ، يتخطفها كل شىء حتى الأسباب التى يستوجب بها الحىّ صفة الحياة ! إذن ما أعجب الحياة .

* * *

وإذن فقد فرَّت منى المعانى التى أحمل نفسى الآن على علاجها ، واستجهلتنى الآلام فى عواصفها حتى ذهبت هذا المذهب الحزين من القول لأقدِّم به الكلام فى هذا الباب الذى عقده « الزيات » للأدب ، ومع ذلك فإنى لأرى الصلة التى تصل أصل هذا الباب بالأصل الذى فى نفسى ، فإن تتبع « الظواهر الأدبية » ينبغى أن توفر له أسباب الاستقرار النفسىّ حتى يستطيع الكاتب أن يجمع إليه المعانى ويضرب عليها الحصار حتى يفندها أو ينقدها أو يحصيها أو يبين عن غامضها أو يكشفَ أستارها أو يقدم لها بالنظر والفكر والتوهم ما يوجب بعض النتائج التى تفضى به الآراء إليها ، وبذلك يمكنه أن يوجد للأدب ميدانًا تستعرض فيه أعماله التى يدأب الأدباء والكتاب والشعراء وأصحاب الرأى فى صنعها وتجويدها . فإذا تناول هذا الأمر بالنفس التى لا تستقر ولا تهدأ كان عمله أقرب إلى الثورة - أى إلى الفوضى - من حيث يريد أن ينظم ، ومع ذلك فإن الخير كل الخير أن نحاول الحياة كما تحاولنا بالاقتسار والعنف ، وأن نقبل عليها وهى مدبرة بالبرهان على إمكان احتمالها جافية كانت أو ناعمة ، ومؤلمة كانت أو مريحة ،

---

(١) المسبعة : الأرض تمتلىء بالسِّباع ، وهى كل حيوان مفترس .

ومنصفة كانت أو باغية ، وأن نأخذها من حيث نرى الرأى أنه هو أجدى وأنفع ، وأيضًا فإن المصدر الحىّ للأدب إنما هو النفس ، فهو يصدر عنها موسومًا بسمتها ، إمّا مستقرة هادئة مفكرة فى جوّ من الراحة ، وإما ثائرة لمّاحة متخطفة فى مسبح الأحلام والآلام والأمانىّ المعذبة بالحرمان ، فليس إذن من المُنْكَر أن ينصب امرؤ لا تهدأ نفسه لمثل هذا الباب الذى وصفناه وأن يتناول هذا الأدب بما يتداولُه من الإحساس المشبوب والنظر الخاطف والرأى العنيف أو أى ذلك كان .

وأحب أن أعهد قبل أن أتكلم ، فإنى رأيت الأدباء قد أكل بعضهم بعضًا بألسنة كظهر المبرد ، وتشاحنوا بينهم للكلمة التى لا ترفع ولا تضع ، وتنابذوا على الأهواء الغالبة المستكلبة ، ومن كان ذلك هجّيراهُ [1] ودأبهُ ، فهو عند النقد أو الاعتراض كالوَحْش الجوَّع [2] الغرثانِ قد أُجْهِض عن أشلاء فريسته ، يكاد يَتَقَدُّ عليه إهابُه من الغيظ والحِقد والرغبة فى الإيقاع بمن يصرفه عن أحلام مَعِدته . وهذا أسوأ الخلق وأبعده عن صريح نهج الأدب ، وأقله غناءً فى تهذيب الأديب ، وما أظن أن فى الدنيا العاقلة أديبًا تخيّل له أوهام « العبقرية » الطائفة به أنه قد سبق السهو والخطأ وبقى النقد والنقاد لَقًى وراءه يتلوذون بظلاله - فى طلب البركة ! ومع ذلك فإن بعض من عنّاهُ القدر فرمى فى غيل الأدب العربى يتصيد ، ... يقتات من أوهام العبقرية حتى حبط بوهمه فى نفسه ، واستكرش ونفش بما أكل حتى تضلّع ، ثم استلقى على الأفياء يتخيَّل أن الأدب كلّه قد وقف عليه من عند قدمه إلى رأسه يُهدهده حتى ينام فى ظلال هذا الملك الهنىء . ومن كان هذا مثاله من الأدباء ، وعرضنا لبعض قوله بالنقد ، فلا يتخيَّلنَّ أنَّا نعنيه هو بذاته - فهو موفور الأحلام على نفسه إن شاء الله - وإنما نعرض للقول على أنه كلام مقول فيه السهو والخطأ ، وتتعاوره الصحة كما يتعاوره السُّقم ، وأنه كلامٌ مصبوبٌ على الناس وعلى أسماعهم وأذهانهم ، فنحن بنقدنا كلامه ، إياهم نريد ، وإياهم

---

(١) الهِجِّيرَى والدَّأب والعادةُ بمعنى .

(٢) جوّع : هكذا فى الأصول ، وهو جمع لا مفرد ، والسياق يقتضى الإفراد ، والغرثان والجائع سواء .

نخاطب ، وعسى بعدُ أن يكون له فى هدأةٍ من نفسه رأىٌ يتابعنا به إن أصبنا أو يسدِّدنا ببيانه إن أخطأنا ، وما نألو فى الاجتهاد ، ولكن ربما حُرم الإنسان التوفيق فيما يأتى وما يذر .

هذه واحدة فيما نبدأ به ، أما ما يقع بين الأدباء من المجادلات والمنافرات ، فحقها من هذا الباب التسجيل ، فإن بقى لنا فى القول مقال نقوله - نتعقب به الأصل الذى يقع عليه الاختلاف والتَّنافُر - لم نقصِّر فى تحقيق البيان وتحريره ، متعاونين فى جعل الحقيقة أسرع إلى إثبات وجودها والدلالة على نفسها حتى تتجلى .

وأما الشعر والشعراء وما يلوذ بهما ، فأنا حين أغمض عينى لأجمع علىّ خيالى ورأيى وفكرى ، أنتهى إلى مثل الغيبوبة من الحسرة واللهفة والألم . فقد فرغ الشعر من بيانه ومعارضه وصاريته الفاتنة ، ووقع إلينا أوزانًا تَتخلَّج بما تحمِلُ تَخَلُّج المجنون فى الأرض الوحِلة ، وما أظنه يعتصم فى هذه الأيام بشاعرين أو ثلاثة ، ولكل منهم مذهب ، وكل قد قذفت به الحياة فى مهنتها وابتذالها حتى صار أكثر فراغه مستهلكًا على صناعة أو وظيفة تطعمه العيش وتحرمه لذته ، ومع ذلك فهم يقولون ويتكلمون والسامعون ينصرفون عنهم لسوء رأيهم فى الشعر الحاضر أول ، ثم لكثرة مايسمعون من كلام لا يحرك عاطفة لأنه لا يصدر عن عاطفة ، وما يزال ذلك يتوالى عليهم ، حتى إنهم لا يكادون يعرفون الشعر إلا هكذا ثقيلًا غثًّا باردًا ، فكيف لا ينصرفون عنه ، ومن ذا الذى يرضى أن يحمِل نفسه إلى « ثلاجة » وهو يُعَد فى العقلاء . فكذلك ضاع شعر هؤلاء الثلاثة فى غثاثة الكثرة ، ثم فترت أنفسهم ولا تزال تفتر - إلا أن يشاء الله - لما يحسون من غفلة السامعين عنهم ، وليس كلهم يستطيع أن يقول كما قال صاحبهم الأول :

لم يَبْقَ من جُلِّ هذا الناس باقيةٌ ... ينالها الفَهْمُ إلّا هذه الصُّوَرُ
أهزُّ بالشِّعر أقوامًا ذوى وَسَن ... فى الجهل ، لو ضُربوا بالسيف ما شعروا
علىَّ نَحْتُ القوافى من مَقَاطِعها ... وما علىَّ لَهُم أن تَفْهَم البَقَر

وكذلك نخشى أن يأتى على الناس زمان يضيع فيه الشعر الجيد أو يرفع حتى

من صدور هؤلاء الثلاثة . ولست أدرى الآن كيف يُتاح لى أن أنهج مع الشعر والشعراء نهجًا يكون رضا ومَقنعًا وباعثًا على تجويد الأساليب والمعانى حتى ينقذ الشعراء فنهم من الضياع ؟ فلندع هذا إلى حينه ، وإلى رأى الشعراء فى « مطالبهم » ، فقد صار لكل أصحاب صناعة مطالب وحتى النساء ، فكيف لا يعرف الشعراء مطالبهم وحقوقهم وهم أرهف إحساسًا وأنبل مقصدًا وأبين بيانًا !!

وأما الكتب التى تصدر فى خلال الأسبوع أو قبله بكثير أو قليل فسننهج لها نهجًا مخالفًا لمنهج العرض الكامل أو النقد الشامل ، فإن هذا أحق به باب « الكتب » و « النقد » وإنما نعرض لها من حيث يتوجه لنا الرأى فى غرض الكتاب الذى يرمى إليه ، وأين يقع منه . وربَّ كلمة واحدة فى صدر كتاب أو ذيله ، لم يعرضْ لها الكاتب إلا شاردًا أو كالشارد ، ثم تكون هى تربُو بمعانيها على الكتاب كله وعلى أغراضه أيضًا ، فربما وقفنا عند هذه وقفةً تَجيش لها النفس من نواحيها ، فنحتفل لها أشد احتفال وأعظمه لتكون كالعَلَم على المعانى النبيلة التى تضيع فى خرائب الكتب .

وبقيت كلمة ... ، فقد أحسن « الزيات » إذ تنبَّه إلى هذا الباب – الآن – من أبواب مجلته وقد أغفله كل هذه السنين . فإن الحرب والثورة وما فى معناهما هى اضطراب عنيف يهز أعصاب الحياة ويقضقض أوصالها ، فلا جَرَم إذن أن تدور الرؤوس وعقولها دورات كثيرة حول نفسها ، فتختلّ الأوزان والمقاييس فى كل شىء ، وأن تبدأ الحياة بعد الحروب بدءًا جديدًا ، ويكون الناس إذ ذاك كالناشر من باطن الأرض وقد خرج من أكفانه ليرى ظاهرها كل شىء غريب وغير مفهوم ، ومع ذلك فهو جديد لذيذ لا يُملُّ وإن كان كله خطأً وفسادًا واستحالة وسببًا من أسباب الفناء ، وكذلك يكون الأدب والأدباء بعدَ الحرب ، كما أخرجت الحرب الماضية ثم الثورة المصرية سنة ١٩١٩ جيلًا من الأدباء استفحل أمرهم وذاع صيتهم وضربوا فى الأدب بأسهم مفلولة محطمة ، ومع ذلك ...

فهذا الباب فى هذه الأيام – إلى مابعد الحرب – يصوِّر بعون الله وتوفيقه

وهدايته الطريقَ الذى كان عليه الأدب إلى اليوم ، ثم أين انتهى وكيف ؟ ثم غيب ذلك كله موقوف على نوع الحرب وأساليبها وما تُبدع من فنون الشر ، وما تثير من طبائع الإنسان – من أنثى وذكر – ، وما تحفِزُ أو تُبيرُ [1] من أحلام الإنسانية المتحدرة من أطباق الماضى البعيد مع الإنسان الوارث الحىّ على هذه الأرض .

* * *

(١) تُبير : تُهْلِك .